المنشآت المعمارية في العهد الأغلبي (184-296هـ/ 800- 909م)

من التعددية الوظيفية إلى التكامل المنظومي والجمالي

تقديم : الباحث حسن فطراوي

الملخص:

شهدت إفريقية في العصر الأغلبي نهضة عمرانية استثنائية فرضها الاستقرار السياسي ووفرة المال، إلى جانب الحاجة الملحة لتحصين الثغور، مما ساعد على دمج التأثيرات العباسية المشرقية بالإرث الروماني والبيزنطي المحلي. وتجلت هذه النهضة في عمارة مدنية متطورة تمثلت في بناء مدن ملكية محصنة مثل العباسية والرقادة التي ضمت القصور والبساتين والمصانع. كما ازدهرت العمارة الدينية عبر تشييد مساجد جامعة خالدة كجامع القيروان الكبير وجامع الزيتونة، والتي تميزت بمحاريبها ومآذنها وقبابها المبتكرة. ولحماية الدولة، برزت العمارة الحربية من خلال الرباطات الساحلية القوية كرباطي سوسة والمنستير المجهزة بأبراج مراقبة منيعة وأسوار سميكة. وقد تميزت هذه المنشأة بتعددية وظيفية فريدة ، فلم تكن المساجد والرباطات مجرد دور للعبادة أو الحصون الدفاعية، بل تحولت إلى مراكز تعليمية، ومحطات بريدية، وفضاءات للتفاعل الاجتماعي والاقتصادي وأخيراً، توج الأغالبة عبقريتهم الهندسية بمنشآت عامة ومائية فريدة، وفي مقدمتها فسقيات القيروان الضخمة لتجميع المياه وتأمين احتياجات السكان اليومية.

الكلمات المفتاحية: العمارة – الأغالبة – إفريقية – الإسلامية .

Abstract

During the Aghlabid era, Ifriqiya witnessed an exceptional urban renaissance" driven by political stability and financial abundance, alongside an urgent need to fortify the frontiers. This facilitated the integration of Abbasid Mashriqi influences with the local Roman and Byzantine heritage. This renaissance manifested in advanced civil architecture, represented by the construction of fortified royal cities such as Al-Abbasiyya and Raqqada, which included palaces, orchards, and manufacturing workshops. Religious architecture also flourished through the construction of enduring congregational mosques, like the Great Mosque of Kairouan and the Al-Zaytuna Mosque, distinguished by their innovative mihrabs, minarets, and domes. To protect the state, military architecture emerged through robust coastal ribats, such as those of Sousse and Monastir, which were equipped with fortified watchtowers and thick walls. Finally, the Aghlabids crowned their engineering genius with unique public

and hydraulic structures, most notably the massive Basins of Kairouan, designed to collect water and secure the daily needs of the population ".

Keywords: Architecture – Aghlabids – Ifriqiya – Islamic

مقدمة:

تمثل العمارة المرآة الأصدق لتوجهات الدول وموازين قواها، وفي تاريخ الغرب الإسلامي، يبرز العهد الأغلبي (184–296هـ / 800–909م) كأحد أهم العصور التي شهدت فيها إفريقية (تونس الحالية) طفرة حضارية وعمرانية استثنائية. فمع استقلال الإمارة الأغلبية ذاتياً عن الخلافة العباسية، واجهت الدولة الناشئة تحديات كبرى تمثلت في تأمين حدودها البحرية والبرية، وتنظيم مجتمعاتها الحضرية، وتأصيل هويتها الروحية. من رحم هذه التحديات، ولدت حركة إنشائية واسعة لم تكن مجرد استجابة عفوية للحاجة، بل صياغة لواجهة سياسية وحضارية متكاملة.

لقد انطلقت المنشآت المعمارية الأغلبية بداية من مفهوم "التعددية الوظيفية"؛ حيث فرضت الجغرافيا السياسية بناء عمارة دينية وتعليمية رائدة تجسدت في جامع القيروان الكبير وجامع الزيتونة، وعمارة عسكرية دفاعية صارمة تمثلت في رباطات سوسة والمنستير لحماية الثغور من الهجمات البيزنطية، وعمارة مائية ومدنية فريدة كفسقيات الأغالبة لضمان البقاء والاستقرار الحُضري. إلا أن العبقرية الهندسية

للأغالبة لم تقف عند حدود تلبية هذه الوظائف النفعية بشكل معزول؛ بل ارتقت بها لتصنع "تكاملاً منظومياً" محكماً، تحولت فيه المباني إلى شبكة حيوية مترابطة؛ فالرباط يحمي المدينة، والمنشأة المائية تغذي الجامع والسكان، ونظام الإشارات النارية يربط السواحل بالعاصمة، مما جعل العمارة أداة إستراتيجية لإدارة الدولة وإبراز سيادتها.

ولم يأتِ هذا الانضباط المنظومي والوظيفي الصارم على حساب القيمة الفنية، بل تُوّج بـ "جماليات" بصرية وهندسية مبتكرة. فقد نجح المعمار الأغلبي في دمج التقنيات والموروثات البيزنطية والرومانية المحلية مع الرؤية الفنية الإسلامية الوافدة، لينتج عناصر معمارية فارقة—كالعقود الحذوية المتجاوزة، والقباب المضلعة، والمحاريب المزخرفة بالخزف ذي البريق المعدني—مؤسساً بذلك لهوية بصرية ممتدة ألهمت العمارة المغربية والأندلسية لقرون تالية.

إشكالية البحث:

ينطلق البحث من الإشكالية التالية، ما هي الدوافع الخلفية التي وجهت اهتمام الأغالبة نحو تشييد حركة معمارية ضخمة في إفريقية؟ وكيف تطورت هذه المنشآت في بنيتها (المدنية والدينية والعسكرية) من مجرد فضاءات لتلبية وظائف نوعية منفصلة، لتستحيل في نهاية المطاف إلى شبكة عمرانية متكاملة منظومياً ومتجانسة جمالياً؟

ويتفرع من هذه الإشكالية عدة تساؤلات:

1-ما هي الدوافع التي جعلت الأمراء الأغالبة يضعون العمارة في مقدمة أولويات دولتهم الناشئة؟

2-كيف تجلت الخصائص المعمارية والهندسية في المعالم العمرانية؟

3-ما هي الآليات الهندسية والتخطيطية التي اعتمدها المعمار الأغلبي لربط هذه المنشأت المتنوعة في منظومة إقليمية موحدة؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تقديم قراءة تحليلية جديدة للعمارة الأغلبية كـ فلسفة تخطيطية مستدامة، تجاوزت الطرح الأثري الجاف ، لتكشف عن آليات صهر الأنماط المدنية والدينية والعسكرية في شبكة إقليمية موحدة تتكامل فيها الوظيفة مع الجمال ، مما يثري المكتبة التاريخية بمرجع تأصيلي يستفاد من مبادئه العمرانية .

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن الدوافع السياقية التي وجهت اهتمام الأغالبة نحو تشييد حركتهم المعمارية ، مع تحليل الخصائص الوظيفية والبنيوية لمنشأتهم (المدنية والدينية والعسكرية) ،وصولاً إلى رصد آليات تحولها إلى شبكة إقليمية مترابطة صهرت المؤثرات المشرقية والمحلية لصياغة هوية جمالية موحدة تخدم الوظيفة والاستدامة.

حدود البحث:

تتمثل الحدود الزمانية للبحث بالحديث عن العمارة الأغلبية (184–296هـ/ 800– 909م) ،أما الحدود المكانية فتنحصر بالحديث عن العمارة الأغلبية في إفريقية(تونس اليوم).

الإطار النظري للبحث:

يستند الإطار النظري للبحث إلى النهج البنيوي الوظيفي ونظرية النظم في العمارة، حيث يدرس النسيج المعماري الأغلبي كبنية حركية متكاملة تتفاعل فيها الأنماط (المدنية والدينية والعسكرية) وظيفياً وجمالياً .

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي ، لتتبع أسباب وبدايات الحركة المعمارية الأغلبية، مدمجاً مع المنهج الوصفي البنيوي لتفكيك الخصائص الوظيفية للمنشأة المعمارية ، ورصد آليات تحولها وتكاملها هندسياً وفنياً ضمن منظومة عمرانية موحدة.

أولاً– عوامل النهضة المعمارية في العصر الأغلبي:

1–الموقع الجغرافي والازدهار الاقتصادي:

لقد كان لموقع دولة الأغالبة دور كبير في ثراء هذه المنطقة وبالتالي كثرة العمائر فيها، فقد كان حد دولة الأغالبة ينطلق من البحر غرب جبل كتامة أي بلاد القبائل الصغرى، ينحدر أولاً إلى الجنوب ، ثم يمر غرب سطيف ويصل إلى أربه ، وهي آخر بلاد على ملك الأغالبة غرباً، وهي أيضاً قاعدة الزاب الذي يحتله جبلا الأوراس والنماشة(شمال شرق الجزائر)، ثم يمتد الحد إلى ناحية الشواطئ ، وينعرج بعد ذلك نحو الشرق ويحيط بهما، في اتجاه الساحل المساير لها ، ويكون ممشى يختلف اتساعاً على طريق البحر، ويميل إلى الانحناء جنوباً والإحاطة ببلاد نفوسة(شمال غرب ليبيا)، وكانت مدينة لبدة(غرب ليبيا) أخر ما يملك الأغالبة وأبعد حصن يحمي الإمارة شرقاً ،فكانت هذه الإمارة مثل جميع الإمارات التي أفرزتها الحضارة العربية الإسلامية محاطة بشريط من البقاع التي تختلف في اتساعها والتي ليست لها مشارف قارة ، وهي نوع من المنطقة الحرام الحامية، والتي تتمتع بفضل حدودها بالسلام[1].

فازدهرت الحياة الاقتصادية في إفريقيا كلها بقيام دولة الأغالبة مستفيدين من وضع البلاد الجغرافي ، فجمعوا الثروات الطائلة التي ظهرت آثارها فيما أقاموه من منشأة وعمائر[2].

1-المطالبي(محمد): الدولة الأغلبية التاريخ السياسي، تر: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ص146-147-148.

2-ابن وردان(عيسى ت: 160هـ - 777م): تاريخ مملة الأغالبة، تح: محمد زينهم، مطبعة مدبولي، القاهرة، ط1، 1988م، ص43، إدريس (سماح): أثر الوضع السياسي في تباين العلاقات التجارية بين

دويلات المغرب والأندلس، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام ،لم ينشر ،جامعة حمص، 2022م، ص 77.

كما استفادت مدينة القيروان من توسطها في ملتقى طرق المواصلات ، فأصبحت مخزناً لكل المواد المصنوعة محلياً والمستوردة من بعيد ،من دون أن ننسى الذهب والرقيق ، فنمت المدينة واتسعت عمائرها ونعمت حياتها[1].

2-اهتمام الحكام الأغالبة بالعمارة:

اهتم الأمراء الأغالبة بالبناء والتعمير فشيدوا المساجد والرباطات[2] والحنايا الشهيرة وهي قنوات مرفوعة لجلب الماء إلى العاصمة، ولطالما ظن الدارسون أنها تعود إلى العهود الرومانية والبيزنطية حتى قامت الحجة على أنها لسادس ملوك الأغالبة أبو إبراهيم أحمد[3] .

وفي عهد حكام الأغالبة ازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً واسعاً لم تشهده البلاد من قبل الأغالبة، إذ وفروا لبلادهم ورعاياهم الأمن الذي كان معدوماً وقتاً طويلاً ، وفي عهد إبراهيم بن أحمد[4] كانت القوافل والتجار يسيرون في الطريق أمنين، وفي ظل هذا الأمن اتجه الناس بكامل قواهم إلى العمل والإنتاج فعمرت

1-العروي(عبدالله): مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م،ص 39.

2-الرباط: هو المكان المخصص للعبادة والعزلة في العواصم للرجال والنساء على حد سواء، وهو أن وجد في الثغور ومناطق الحدود كان للعبادة والجهاد ،ومقراً للمقاتلين وممراً للبريد، ومأوى للقوافل، وبمعنى آخر كان الرباط في الأصل بناء عسكري دينياً للمجاهدين، ثم أصبح مأوى للمعتكفين وأبناء السبيل، الشهابي(قتيبة): معجم دمشق التاريخي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1999م، ج1،ص317.

3-العروي: مجمل تاريخ المغرب، ص39.

4-إبراهيم بن أحمد: هو تاسع أمراء الدولة الأغلبية أصحاب أفريقيا ولي إفريقيا سنة 261هـ/874م،أبو الفدا(إسماعيل بن محمد ت:732هـ/1332م):المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط1،د.ت،ج1،ص75.

أراضٍ كثيرة وبنوا الأسوار والأبراج والحصون وصهاريج المياه وغيرها من المنشأة المعمارية التي برع مهندسوها في إحكام بنائها حتى صارت من أبرز النماذج للفن الإسلامي في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ولا شك ان الاغالبة استفادوا من خلاصة حضارات سبقوهم في حكم إفريقيا من الرومان والبيزنطيين في تشييد أثارهم المعمارية، والتي لا يزال معظمها باقياً في البلاد التونسية شاهداً على عظمتهم، وقد بالغ إمراء الأغالبة في إقامة المساجد لما كان لرجال الدين مكانة عظيمة بين الناس في إفريقيا فبذلوا في بنائها وزخرفتها أموالاً طائلة[1].

ثانيا- العمارة المدنية:

تمثل العمارة المدنية الوعاء المادي الباعث للحياة الحضرية ،والركيزة الأساسية لتنظيم المجتمعات وتطورها.

1-مدينة العباسية(القصر القديم):

في سنة185هـ/802م، شرع إبراهيم بن الأغلب(184_196هـ) ببناء مدينة القصر القديم(العباسية) ، وصارت بعد ذلك دار لأمراء بني الأغلب، وكانت على ثلاثة أميال من القيروان، وكان قد اشترى موضعها من أحد القبائل هناك ونقل اليها السلاح والعدد سراً، وسكن حوله أهل الثقة من خدمه[2] .

أن ما أمتاز به إبراهيم ين الأغلب من الشجاعة ورجاحة العقل أدى إلى رقي في حالة البلاد وانتشار في الأمن وزيادة في دخل الدولة مما ساعد على بناء عاصمة جديدة لإمارته بجوار القيروان والانتقال إليها،

1-أحمد (عبدالرحمن حسب الله): بنو الأغلب إدارتهم ودورهم الحضاري في إفريقيا ، مجلة دراسات إفريقيا، العدد20، 1999م،ص168-173.

2-ابن عذارى المراكشي(أحمد بن محمد ت: 712هـ/ 1299م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: كولان وليفي بروفنال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص93.

يقول ابن خلدون: فقام إبراهيم بالولاية وضبط الأمور وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته[1] .

وبعد أن تم بناء المدينة أطلق ابن الأغلب على المدينة الجديدة أسم العباسية تيمناً باسم الأسرة الخلافية، ولتكون قرينة للهاشمية أول عاصمة عباسية قبل بغداد، وعرفت أيضاً باسم (القصر القديم) ولا ندري إن كانت هذه التسمية الأخيرة قد ظهرت منذ بناء المدينة أو أنها ظهرت في وقت متأخر ،وتمثل هذه المدينة ذروة التكامل المنظومي الأغلبي كـ مدينة أميرية وعاصمة سياسية متكاملة الخدمات ، فقد احتوت المدينة على قصر الأمير وما الحق به من الدواوين ودور سك النقود ومساكن حاشيته والمسجد الجامع ومعسكرات الحرس وخزائن السلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش[2] .

وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة التي كانت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء ، وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقيم فيها الحرس[3] .

ولها خمسة أبواب هي(باب الرحمة قبلي وباب الحديد قبلي وباب غليون شرقي وباب الريح شرقي وباب السعادة غربي يقابل المقبرة الكبيرة بالمدينة[4]).

1-ابن خلدون(عبدالرحمن بن محمد ت: 808هـ/ 1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، السعودية، 2009م، ج4، ص 196.

2-عبد الحميد(سعد زغلول): تاريخ المغرب العربي، دار المعارف، مصر، 1993م، ج2، ص32.

3-مؤنس(حسين): معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد ، مصر، 2004م، ص98.

4-زيتون(محمد): القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، دار المنارة، القاهرة، 1988م،ص98.

وفي وسط المدينة كانت توجد رحبة كبيرة عرفت باسم(الميدان) ربما كانت تستخدم لعرض الفرسان، وهكذا اتسعت مدينة العباسية وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة وفنادقها وأسواقها ومواجل الماء العظيمة التي كانت تمد القيروان أوقات القحط.

وفي الوقت الذي بدأ فيه إبراهيم بن الأغلب البناء كان يعمل في الخفاء على تحقيق هدفه في إنشاء العباسية، وهو العمل على التحرر من تسلط العسكر المشاغب والتمكن من مدافعتهم إذا تطلب الأمر وذلك بالاعتصام بقلعته الجديدة ، وعندما تم بناء العباسية انتقل إليها في جنح الليل بأهله وحرمه وعبيده[1] ، وقد قال ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ مبيناً ذلك : ً وابتنى إبراهيم بن الأغلب مدينة سماها العباسية بقرب القيروان وانتقل إليها بأهله وعبيده[2] ً .

وقد أسكن فيها عبيده والذين اصبحوا حرسه الخاص الذي يضع فيه ثقته حوله، كما اسكن معه أيضاً أهل الثقة من جنده، وبذلك أصبحت العباسية مقراً لإبراهيم ومعسكراً لقواته[3] .

1-عبد الحميد: تاريخ المغرب، ج2، ص 33-34.

2-ابن الأثير(علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ت: 630هـ/ 1233م): الكامل في التاريخ، تح: محمد الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، مج5، ص313.

3-عبد الحميد: تاريخ المغرب، ج2، ص34، إبراهيم(عبد الحكيم): مظاهرة الحضارة في عصر الأغالبة بالمغرب العربي،جامعة دنقلا ، د.م د.ت ، ص 18.

2-مدينة رقادة:

أهم ما يميز عهد إبراهيم بن أحمد(261_289هـ) هو ما قام به من السير على سمة كبار الحكام من منشئي الدول، وذلك باتخاذه عاصمة جديدة غير القصر القديم، وهي المدينة التي بناها إبراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة الأغلبية وسماها العباسية، ففي سنة 263هـ/876م، بدأ إبراهيم بن أحمد في

بناء مدينة رقادة[1] على بعد أربعة أميال من القيروان على مساحة قدرها أربعة وعشرون ألف ذراع وأربعون ذراع، وهي حسنة الموقع ، كثيرة المنتزهات، فأكثرها بساتين وليس بإفريقيا أعدل هواء ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، وقد عمرت وكثرت أسواقها وحماماتها وفنادقها ، وأنتقل إليها قصر الإمارة من القصر القديم، كما بنا بها إبراهيم قصوراً مهيبة وعجيبة[2].

أما عن التسمية (رقادة) فقيل إنها نسبة إلى الرقاد أي النوم، وذلك لطيب مناخ المنطقة التي اختيرت للبناء ، وخطط المدينة بحيث كان دورها أربعة عشر(ألف ذراع)، وبنيت فيها بالإضافة للقصور المساجد، وكان أول قصر بني فيها هو القصر المعروف بـ (الفتح)الذي تم بناءه في سنة 264هـ/ 877م، فانتقل إليه إبراهيم بن أحمد من القصر القديم، وبذلك صارت رقادة العاصمة الجديدة وأصبحت رمزاً لدولة إبراهيم الثاني ، واستمرت أعمال إبراهيم في أعمار رقادة من أجراء المياه إليها واغتراس صنوف الثمار الطيبة والرياحين، وبناء القصور داخل أسوار المدينة ، مثل قصر بغداد وقصر المختار ، حتى صارت رقادة قبل نهاية عهده اكبر من القيروان[3] .

1-عبد الحميد: تاريخ المغرب، ج2، ص116.

2-زيتون: القيروان، ص 99.

3-عبد الحميد: تاريخ المغرب، ج2، ص116-118.

وقد بلغت رقادة أعظم قسط من الحضارة والمدنية في عهد إبراهيم بن احمد حيث أسس فيها بيت الحكمة على غرار مكتبة بيت الحكمة[1] للرشيد[2] والمأمون[3] ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت في البلاد المغربية، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة[4] .

وبالتالي يمكن القول، أن مدينة رقادة تمثل النموذج الأرقى لـ المدينة المرفئية والمنتزه الأميري التي جسدت التلاحم المنظومي بين مركزية السلطة السياسية وهندسة الرفاه البيئي والمائي في العهد الأغلبي.

ثالثاً–العمارة الدينية:

تعد العمارة الدينية مرآة تعكس عظمة الحضارة الإسلامية، حيث برزت بتصاميمها الفريدة مثل المساجد والمآذن والقباب التي تهدف إلى إيجاد مساحات هادئة للتأمل والعبادة.

1–مكتبة بيت الحكمة: أنشأها الخليفة هارون الرشيد المتوفي سنة 194هـ/ 786م في بغداد ، وهي اول مكتبة عامة وأكاديمية تقام في البلاد الإسلامية، عليان(ربحي مصطفى): المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، دار صفاء للنشر، عمان، ط1، 1999م، ص146.

2–الرشيد: هو أبو جعفر هارون بن محمد المهدي بن عبدالله بن العباس ولد بالري سنة خمسين ومائة ، بويع بالخلافة سنة سبعين ومائة وتوفي سنة ثلاث وتسعين ومائة، ابن الكازروني(علي بن محمد ت: 697هـ/ 1297م): مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تح: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970م، ص125–127.

3-المأمون: هو أبو العباس عبدالله بن هارون بويع بالخلافة سنة ثمان وتسعين ومائة وتوفي سنة ثمان عشرة ومائتين ، القلقشندي(أحمد بن عبدالله ت: 820ه/1418م): مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تح: عبد الساتر فرج، عالم الكتاب، بيروت، د.ت، ج1، ص 208-209.

4-ضيف(شوقي): عصر الدول والإمارات ، القاهرة، دار المعارف، القاهرة ، 1990م، ص30.

1-المسجد الجامع بالقيروان:

أختط المسجد الجامع بالقيروان في العصر الأموي ،في عهد والي إفريقيا عقبة بن نافع الفهري سنة 50ه/670م، وفي عهد الأغالبة جدد الجامع ليتوجوا أعمالهم عليه ، وليصبح أثراً باقياً من أثار الأغالبة، ففي سنة 221ه/836م قام الأمير الأغلبي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب[1] (201_223ه/817_838م)بهدم المسجد العتيق بعد أن لم يعد مناسباً من حيث السعة أو من حيث الفخامة لمدينة القيروان التي أصبحت أعظم عواصم المغرب، كما لم يعد مناسباً بالمملكة المغربية التي وطدت أقدامها في إفريقيا، وأصبح بلاطها منافساً لبلاط الخلافة في بغداد[1] .

هدم زيادة الله الجامع كله، وأراد هدم المحراب فقيل له أن من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع، فلج في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره حتى قال له أحد البناة أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك ، والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله مخرش منقوش كله، يستدير به أعمدة رخام في غاية الحسنة والجمال والبهاء، وأصبح عدد ما في الجامع من الأعمدة أربع مائة وأربعة عشر عموداً وبلاطاته سبعة عشر بلاطاً، وطوله

مائتان وعشرين ذراعاً وعرضه مائة وخمسون ذراعاً، وبلغت النفقة في بنيانه ستة وثمانين ألف مثقال، ولما ولي إبراهيم بن أحمد بن الأغلب زاد في طول بلاطات الجامع[2] .

1-زيادة الله: صاحب إفريقيا تولى حكمها سنة201هـ/816م،ابن الأثير:الكامل في التاريخ،ج5،ص433.

1-عبد الحميد : تاريخ المغرب، ج2، ص73، سعيدان(عمر): آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي بأفريقية وتونس وليبيا ،مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، سوسة، ط2، 1949م، ص 9-10.

2-زيتون: القيروان، ص 86-88.

وقيل أن أحد الولاة الذين خلفوا عقبة بن نافع قد جمل المسجد بأعمدة من رخام استخرجا من أنقاض قرطاجة[1]، فاستعمل الأغالبة الأعمدة نفسها عند إعادة بنائه وتجديده، وكانت المئذنة مربعة في جامع القيروان هي نفسها التي شيدها عقبة بن نافع في العصر الأموي، فبقيت على حالها في عهد الأغالبة تمثل طابع المآذن الأموية السورية التي أصبحت فيما بعد مثالاً يحتذى به في بناء المساجد في المغرب والأندلس[2].

2-جامع الزيتونة:

جامع الزيتونة أنشأ في العصر الأموي ، ثم أعاد أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب وأبنائه بنائه وتجديده، ولقد عثر على نقش كوفي في قبة المحراب نصه الآتي: بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي، طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته، على يدي نصير مولاه، سنة خمسين ومائتين، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله، صنع فتح. وهكذا يحمل النصب اسم المستعين بالله، كما يحمل أسم الفتى الخادم الذي أشرف على تنفيذ العمل من الناحيتين الإدارية والمالية، وكذلك اسم مهندس البناء وهو فتح، أما أسم الأمير الأغلبي الحاكم فلا يوجد في النقش وهو الأمر المستغرب وإن كان من الممكن تفسير ذلك بأنه نوع من الأدب من جانب الأمير الأغلبي الذي رأى أن يقدم أسم الخليفة دون ذكر أسمه ،وخاصة أن أبا إبراهيم كان قد توفي في سنة 249هـ/864م، وخلفه أخوه أبو محمد زيادة الله الأوسط الذي كان له هذا القرار على الأغلب، ومن المتفق عليه أن جامع الزيتونة حافظ على عناصره الرئيسية

1-قرطاجة:مدينة عظيمة شامخة البناء أسوارها من الرخام الأبيض وبها من العمد الرخام المتنوع الألوان ما لا يحصى ولا يحد ،تقع في أحد نواحي إفريقيا، الحموي: معجم البلدان، مج 4،ص323.

2-زبيب(نجيب): الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير، بيروت، 1997م، ج2، ص161-162.

منذ أن بناه أبو إبراهيم أحمد، والمسجد الحالي يتكون من الصحن الذي يحيط به الأبهاء، ومن بيت الصلاة الذي يحتوي على تسعة أروقة رأسية على حائط القبلة من الشمال إلى الجنوب ، والرواق الأوسط منها ، وكذلك بلاط المحراب المستعرض أكثر اتساعاً وأعلى ارتفاعاً من بقية الأروقة والبلاطات العرضية، وعند التقائهما توجد قبة المحراب الرائعة التي بنيت سنة 250هـ / 864م، والتي تحمل نقش الخليفة المستعين[1]،إذ اضفت هذه القبة مهابة بصرية على قاعة الصلاة.

ويمثل جامع الزيتونة الركيزة المنظومية التي صهرت الوظيفة الدينية بالدور التعليمي والحضاري للإقليم، ليشكل نواة عمرانية واقتصادية ارتبطت بها الأسواق والأنشطة المدنية الحيوية كافة.

ولا بد لنا أن نشير إلى اهتمام أمراء الأغالبة الكبير بالعمارة الدينية، فقد بذلوا في بناء المساجد وزخرفتها أموالاً طائلة، كما وجدوا من أهالي إفريقيا الوارثين للفنون السابقة من رومانية وبيزنطية المساعدين المهرة فأعانوهم على إتحاف البلاد بمجموعة فنية انفردت بها إفريقيا عن سائر الممالك الاسلامية[2].

رابعا– العمارة الحربية:

أنشئ في المغرب العربي العديد من العمائر العسكرية ، كان من أهمها ما أنشئ في عصر الأغالبة كرباط سوسة ورباط المنستر والأسوار والحصون.

1–رباط سوسة:

1-عبد الحميد: تاريخ المغرب ،ج2، ص 102.

2-أحمد: بنو الأغلب، ص 169،حسن(زكي):اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ،مطبعة جامعة القاهرة، مصر،1956م،ص2.

هو من بناء زيادة الله بن الأغلب ، أسسه في سنة 206هـ/822م، وتاريخ الانشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى المدخل، تقرأ عليها النص التالي: مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاءه، على يد سرور الخادم مولاه في سنة ست ومائتين ، اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين. ويقوم الرباط على خليج قابس[1]، وهو مدخل سور المدينة من ناحية البحر،وطول ضلع سوره أربعون متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات مرفوعة على عمد وفوقها سقف يتكون من ثلاث قباب ، هذه القاعات والاسطوانات يؤدي بعضها إلى بعض ، وهي تستعمل للنوم والأكل ، ويليها صحن الرباط وهو مسافة واسعة مسورة تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقين وهي تطل على صحن الرباط، وفي ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط[2]،وأسس هذا الرباط ليكون حصناً عسكرياً وقاعدة للدفاع الساحلي.

2-رباط المنستر:

يقع هذا الرباط بين المدينتين التونسيتين المهدية وسوسة، بناه أحد قادة الخلفاء العباسيين في القرن الثاني للهجرة [3]، وهو أقدم وأجمل من رباط سوسة من الناحية الهندسية ، وقد اتسع هذا الرباط حتى أصبح على شكل حصن كثير المساكن ، والرباط عبارة عن طابقين يخصص الأول منهما للمسجد

وقاعات الدروس والاجتماعات والطعام ،إذ يجسد التكامل المنظومي عبر صهر قلعته العسكرية الدفاعية بصومعة تعبدية وفضاءات تعليمية حيوية تلبي حاجات المجتمع وتتبدى جماليته في التوازن البصري[4].

1-قابس: مدينة بين طرابلس وصفاقس تقع في الإقليم الرابع، الحموي، معجم البلدان،مج4،ص289.

2-ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة، ص38-39.

3-احمد(علي): تاريخ المغرب العربي الإسلامي ، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 2006م، ص96-97.

4-ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة، ص38-40، سعيدان: آثار تونس، ص 26.

3-الأسوار والحصون:

أقيمت في عهد الأغالبة العديد من الأسوار والحصون كان أهمها سور مدينة سوسة، الذي أقامه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب سنة 245هـ/ 860م، وسور مدينة صفاقس على الساحل الشرقي لتونس بناه إبراهيم بن احمد الأغلبي ، وأقيم من التراب واللبن، ثم رمم بعد ذلك بالحجارة من أجل إعطاء متانة جديدة[1]. وقد أهتم إبراهيم بن احمد ببناء الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو " فيصل إيقادها إلى الإسكندرية في مصر بالليلة الواحدة"؟؟ كما ابتنى على مدينة سوسة سوراً[2] ،وعندما ابتنى إبراهيم بن الأغلب مدينته العباسية قام بإحاطتها

بالأسوار القوية المحصنة لحمايتها، ثم أحاط الأسوار بخندق عظيم[3]،وسبب بنائها يرجع إلى حماية المدن الساحلية من الغزوات الأوروبية.

خامساً- المنشآت العامة:

المظهر المعماري الفني الأخير هو المنشآت العامة التي أنشأها الأغالبة حباً للخير وإقبالاً لما فيه لصالح الرعية ، وهب عبارة عن مجموعة من أشغال الري فنجد الأغالبة قد حفروا الآبار وبنو البرك والمواجل والصهاريج وجلبوا إليها الماء من العيون وسطوح الجبال ، وتعد هذه المنشآت آية من الجمال والروعة و التكامل في الفن المعماري الأغلبي ولا زالت آثار هذه المرافق موجودة مثل

1-أحمد: تاريخ المغرب الإسلامي، ص 97، طالب(علي): النشاط البحري في الغرب العربي الإسلامي منذ سنة(138ه/756م)حتى(422ه/1031م)،بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام ،لم ينشر، جامعة حمص،2024، ص107.

2-زيتون: القيروان ، ص 106 ، سعيدان: آثار تونس ، ص 27.

3-عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 33.

فسقية[1] القيروان وبركة رقادة المستطيلة[2]

واعتنى الاغالبة كذلك ببناء صهاريج المياه وجبابها، والصهريج عبارة عن خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا في باطن الأرض ، كذلك أكثر الأغالبة من بناء المواجل لخزن مياه الأمطار ، والمواجل عبارة عن أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات يتجمع فيها ماء المطر، وهي دائماً مكشوفة وقد يقام في وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة[3] .

ولعل أعظم المواجل التي أنشئت لخزن المياه سعة واتقاناً هو الماجل الذي بناه أحمد بن محمد بن الأغلب، فقد بلغت روعة البناء لهذا الماجل أن عبيد الله الفاطمي[4] عندما رأه أبدى دهشة لإتقانه وروعته وعده من العجائب التي لم يراها في المشرق، ولا شك ان مشروعاً للمياه يبقى منذ ذلك الوقت إلى اليوم ولم يتصدع ولا زال في الماء لأمر عظيم يدعو إلى الدهشة والعظمة ودقة الإتقان والمتانة، وذلك الماجل هو المشهور اليوم باسم(فسقية الأغالبة)، وهو مستدير متناهي الكبر، أنشئ سنة245هـ/860م، وأنفق عليه ما يقارب من مائة ألف دينار[5].

1-فسقية:مفرد فسقيات، وهي حوض من الرخام ،مستدير الشكل غالباً في وسطه نافورة تجمع الماء فيه، رزق(عاصم محمد): معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية ، مكتبة مدبولي، مصر، ط1، 2000م، ص213.

2-أحمد : بنو الأغلب، ص 173.

3-عبيدالله الفاطمي: هو مؤسس الدولة الفاطمية في تونس، الذهبي(محمد بن أحمد748هـ/1374م):سير أعلام النبلاء، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1981م، ج15، ص

4-ابن وردان : تاريخ مملكة الأغالبة، ص 41.

5-زيتون: القيروان، ص 92.

سادساً- مظاهر التداخل والوظائف المتبادلة في الأنماط المعمارية الأغلبية:

لم تكن الأنماط المعمارية (المدنية والدينية والحربية) في إقليم إفريقية خلال العصر الأغلبي (184-296هـ/ 800-909م) معزولة عن بعضها البعض، بل شكلت منظومة هندسية متكاملة تتبادل الأدوار والوظائف ، مدفوعة بالظروف السياسية والتهديدات العسكرية والبيئة الجغرافية للإقليم، ويتجلى أول مظاهر هذا التداخل في عملية عسكرة المنشآت الدينية، حيث فرضت خطوط المواجهة الساحلية والتهديدات البيزنطية المستمرة على المعماري الأغلبي إعطاء الأولوية للتحصين الدفاعي عند تصميم المساجد الجامعية، وظهر هذا بوضوح في جامعي سوسة وصفاقس اللذين شيدوا بأسوار ضخمة سميكة مبنية بالحجر المنحوت تخلو من الزخارف الخارجية، ودعمت بأبراج دائرية ركنية تحاكي هندسة القلاع تماماً[1] .

كما لم تقتصر وظيفة المآذن الأغلبية بهيئتها المربعة الضخمة وشرفاتها المرتفعة على رفع الأذان ، بل عدت أبراج استطلاع ومراقبة ساحلية تشعل فيها النيران ليلاً لإرسال الإشارات التحذيرية للمدن الداخلية عند رصد الغارات البحرية .

وفي المقابل، ظهر اتجاه مواز تمثل في إضفاء الطابع الديني على العمارة العسكرية، تجسيداً لمفهوم المرابطة والجهاد في الثغور.

فالرباطات الأغلبية كرباط سوسة ورباط المنستر لم تكن ثكنة عسكرية جافة، بل دمجت وظيفة دفاعية بعبادة الاعتكاف وتدريس العلوم الشرعية ، ويظهر هذا التداخل الهيكلة في تخصيص مصليات جامعة واسعة متكاملة تحتوي على محاريب وقبلة محددة بدقة في الطوابق العلوية لتلك

1-سعيدان : آثار تونس، ص 10-30، إبراهيم: مظاهر الحضارة الإسلامية ،ص 16-17.

الحصون، ليتناوب المقاتلون بين حراسة الأسوار وأداء الصلوات[1] .

ومن جهة أخرى ، شكلت الإنجازات المائية في العمارة المدنية ركيزة لوجستية أساسية لضمان تشغيل واستدامة المنشآت الدينية والحربية، فكانت فسقيات الأغالبة في القيروان تغذي جامع القيروان الكبير عبر قنوات مائية متطورة لتأمين مياه الوضوء لآلاف المصلين، في حين زودت كافة الرباطات

الحربية بتجهيزات مدنية تعرف بـ المواجل وهب خزانات أرضية في وسط الصحون لتجميع مياه الأمطار لضمان صمود وديمومة الجنود أثناء الحصار العسكري الطويل.

وينصهر هذا التداخل الوظيفي في بوتقة واحدة من خلال وحدة التقنية التشكيلية والمواد، إذ اعتمد المعماري الأغلبي أسلوباً موحداً في إعادة تدوير الآثار الكلاسيكية عبر جلب الأعمدة والتيجان الرومانية والبيزنطية وتوظيفها متداخلة في بلاطات المساجد وقاعات القصور المدنية في مدينتي العباسية ورقادة، على حد سواء، هذا بالإضافة إلى غياب المبالغات الزخرفية الخارجية، مما صهر الأنماط الثلاثة في هوية بصرية أغلبية واحدة وفريدة[2] .

يرى الباحث أن ظروف الثغور فرضت هيمنة الوظيفة الدفاعية كغلاف حمائي يتداخل بنيوياً مع المنشآت الدينية والمائية لتأمين استقرار المنظومة الحضرية، ومن ثم ، لا يمثل الجانب العسكري انحيازاً تحليلياً بل الركيزة التي أتاحت لبقية الوظائف الاستمرار والتكامل.

1-إبراهيم : مظاهر الحضارة الإسلامية، ص 14- 15.

2-سعيدان: آثار تونس ، ص 14-27.

خاتمة:

من خلال ما سبق ، نستنتج أن العمارة في العهد الأغلبي لم تكن مجرد نتاج لاستجابات وظيفية منفتحة أو عفوية ، بل شكلت رؤية تخطيطية مستدامة واعية بذاتها، فقد أثبتت الدراسة أن التحول من التعددية الوظيفية للمنشآت (المدنية والدينية والحربية)، إلى مرحلة التكامل المنظومي قد تحقق عبر شبكات هندسية وبيئية ودفاعية بالغة التعقيد، برزت بوضوح في عبقرية المنظومة المائية للمواجل ونظام الإنذار المبكر للرباطات.

كما نجح المعمار الأغلبي في صهر الموروث المحلي الروماني والبيزنطي مع المؤثرات العباسية المشرقية، واضعاً بذلك لبنات الهوية الفنية المستقلة لبلاد المغرب الإسلامي التي توازن بدقة بين البساطة الإنشائية والفخامة البصرية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً–المصادر:

–ابن الأثير(علي بن أبي الكرم محمد ت: 630ه/1233م):

1–الكامل في التاريخ، تح: محمد الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1987م.

–الحموي(أبي عبد الله ياقوت ت: 622ه/1225م):

2–معجم البلدان ،دار صادر، بيروت ، د.ت .

–ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت: 808ه/ 1406م):

3–العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، السعودية، 2009م.

–الذهبي (محمد بن أحمد ت: 748ه/1374م):

4–سير أعلام النبلاء، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط1، 1981م.

-أبو الفدا (إسماعيل بن محمد ت: 732هـ/ 1332م):

5- المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، د.ت.

-القلقشندي(أحمد بن عبد الله ت: 820هـ/ 1418م):

6-مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تح: عبد الساتر فرج، عالم الكتاب، بيروت، د.ت .

-ابن الكازروني(علي بن محمد ت: 697هـ/ 1297م):

7- مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تح: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970م.

-ابن وردان(عيسى ت: 160هـ/ 777م):

8- تاريخ مملكة الأغالبة، تح: محمد زينهم، مطبعة مدبولي، القاهرة، ط1، 1988م.

ثانياً- المراجع:

-أحمد (عبدالرحمن حسب الله):

1-بنو الأغلب إدارتهم ودورهم الحضاري في إفريقيا، د.د ، د.م ،1999م.

-أحمد (علي):

2- تاريخ المغرب العربي الإسلامي، منشورات جامعة دمشق، سوريا،2006م.

-إبراهيم (عبد الحكيم):

3-مظاهر الحضارة الإسلامية في عصر الأغالبة بالمغرب العربي ، جامعة دنقلا، د.م ، د.ت .

-حسن (زكي):

4-اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، مطبعة جامعة القاهرة ، مصر، 1956م.

-رزق(عاصم محمد):

5-معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية ، مكتبة مدبولي، مصر، ط1، 2000م.

-زيبب(نجيب):

6-الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير، بيروت، 1997م.

-زيتون(محمد):

7- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، دار المنارة، القاهرة، 1988م.

-سعيدان(عمر):

8-آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي بأفريقية وتونس وليبيا، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، سوسة، ط2، 1949م.

-الشهابي(قتيبة):

9-معجم دمشق التاريخي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1999م.

-ضيف (شوقي):

10-عصر الدول والإمارات ، دار المعارف، القاهرة، 1990م.

-عبد الحميد (سعد زغلول):

11-تاريخ المغرب العربي، دار المعارف ، مصر، 1993م.

-العروي(عبد الله):

12-مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط2، 2000م.

-عليان(ربحي مصطفى):

13-المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ، دار صفاء للنشر، عمان، ط1، 1999م.

-المطالبي (محمد):

14-الدولة الأغلبية التاريخ السياسي، تر: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1995م.

-مؤنس (حسين):

15-معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، مصر، 2004م.

ثالثاً- الرسائل الجامعية:

-إدريس (سماح):

1-أثر الوضع السياسي في تباين العلاقات التجارية بين دويلات المغرب والأندلس ، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام ، لم ينشر، جامعة حمص، 2022م.

-طالب (علي):

2-النشاط البحري في الغرب العربي الإسلامي منذ سنة (138هـ/ 756م) حتى (422هـ/ 1031م)، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام ، لم ينشر، جامعة حمص، 2024م.